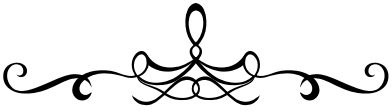

خير الدين باربـروس بـاشا وانتصار "براوزة"[٣٤]

"خير الدين باربروس" هو قائد القوات البحرية العثمانية الذي أوصلها إلـى أوج قوتهـا، ولـد "خيـر الدين باربـروس" عام (١٤٧٨م) واسـمه في الأصـل "خضـر رئيـس"، وهو أصغـر إخوته، وقـد هاجر والـده "يعقوب آغـا" من "واردار ينيجه (*Vardar Yenice*)" إلى جزيرة "مدللي" أثناء توطين الأتراك فيها، وذلك بعد أن فتحها السـلطان الفاتح ومنحه منها مسـاحات كبيرة.

ولما بلـغ الخامسـة والعشـرين مـن عمره صنَع سـفينة صغيرة، وبدأ يمـارس التجـارة ما بين جزر "مدللي" و"سـلانيك" و"أيريبـوز"، وكان هو وأشقاؤه تحت حماية "شهزاده كوركوت"، لكن لما تولى السلطان "ياووز سـليم" العرش عـام (١٥٢٠م) اضطربت أمورهم، إذ بدأ السـلطان يبحث عن "كوركوت" في كلِّ مكان، ويقتل بلا هوادةٍ كل من يساعده أو يخفيه، ويحرق الأخضر واليابس في سبيل العثور عليه إن جاز التعبير؛ لذلك قرَّر خضر رئيس وشقيقه الأكبر "أوروج" مغادرة مدللي.

(٣٤) بروازة: وتسمى أيضًا "بريفيزا" وهى مدينة تقـع غرب اليونان.

obeikandl.com

في سبيل الله

اجتاز "خضر رئيس" البحر الأبيض المتوسط من الشمال إلى الجنوب على متن سفينة جديدة اشتراها من "براوزة"، ووصل إلى جزيرة "جربه(*Cerbe*)"، والتقى فيها بأخيه "أوروج"، وبحث الشقيقان عن ميناء آمن يرسو فيه أسطولهما الصغير الذي يتكوّن من سفينتين، فقرّرا التوجُّه إلى "تونس"، وهناك قدّما هداياهما إلى سلطان تونس "الحفصيّ"، وطلبا منه قائلين:

- امنحونا من دولتكم ميناءً آمنًا نؤوي فيه سفننا، ثمَّ نجاهد في سبيل الله ونبيع غنائمنا في أسواق تونس؛ فتزدهر التجارة ويستفيد المسلمون أيضًا، ونعطيكم الثُمُن من مال الغنيمة.

وافق سلطان تونس على هذا العرض، ومنحهم ميناء "خلق الوعد"، فقضوا فيه الشتاء، ثمَّ أبحروا في الربيع إلى البحر الأبيض المتوسط، فكانوا يستولون على سفن "إسبانيا" و"البندقيّة" ويعودون منهما بغنيمةٍ وافرةٍ إلى تونس، ولما كثرت سفنهم اتخذوا جزيرة جربه قاعدة لهم، وامتدّت غاراتهم حتى وصلت إلى سواحل إيطاليا، وازدادت شهرتهم في أوروبا يومًا بعد يوم وخصوصًا عندما هاجم أسطول "باربروس" سواحل "صقلية" هجوما قويًّا، بل إنهم أضحوا كابوسًا على السفن المسيحية.

وفي عام (١٥١٣م) سيطر الأَخَوان "أوروج" و"خضر" على مدينة "جيجيللي" المستقلة، وأحبَّهما أهل المدينة كثيرًا، ويُعدّ إعلان أهل

"جيجللي" "أوروج رئيس" سلطانًا عليهم حجرَ الأساس في بناء دولة "إخوة باربروس" شمال إفريقيا.

دعاء السلطان سليم

وفي عام (١٥١٥م) أرسل "إخوة باربروس" "محي الدين رئيس" إلى إسطنبول عاصمة الدولة العثمانية بستِّ سفن لطلب الدخول تحت حماية السلطان "ياووز سليم"، ورسَتْ السفن أمام "سراي بورنو"، وأطلقت مدافعُها النيرانَ تحيّة للسلطان.

استقبل السلطان "سليم خان" "محي الدين رئيس"، ورحّب برسالة "خضر رئيس"، ورفع يديه ودعا لـ"باربروس" وملّاحيه قائلًا:

- اللهمّ بيّض وجه رجال أوروج وخير الدين في الدنيا والآخرة، واجعل سيوفَهم مسلولة، وعدوّهم مقهورًا، ومعاركهم منصورة في البرِّ والبحر، واجعل النصر حليفهم دائمًا.

ثمَّ أمر السلطان بصناعة سفينتين من نوع "قادرغا"، وهي سفينة كبيرة مُسطَّحة تسير بالمجاديف على متنها سبعة وعشرون مقعدًا.

وما إن مضت مدّة حتى استقبل السطان سليم "محي الدين رئيس" مرّة ثانية وأهداه سيفين مِقْبضُهما من الألماس وحُلّتين وقُنْزُعَتَينِ، وقال له:

- أعط يا رئيس كلًّا من خير الدين وأوروج بك سفينةً وسيفًا وقُنْزُعَة، وأخبرهم بأنَّني سعدت بهداياهم، ودمتم في رعاية الله وأمنه، ونصركم الله على أعدائكم، وإذا دعتكم الحاجة لشيءٍ فاطلبوه مني[٣٥].

(٣٥) يلماز أوزطونة، مذكرات بربروس خير الدين باشا، إسطنبول ١٩٨٩م، ص ٣١.

وهكذا قد نالت إخوة "باربروس" مساندة الدولة العثمانية.

استشهاد أوروج رئيس

وبعد أن فتح أوروج رئيس "الجزائر" ومدينة "شرشال" في الغرب ومدينة "بجاية"[٣٦] -الخاضعة لحكم الإسبان، والتي تقع ضمن حدود الجزائر-؛ تمّ تعيينه سلطانًا على مقاطعة الجزائر، ثمَّ أعقب هذا بفتح "تلمسان" و"تنس"[٣٧] عام (١٥١٧م)، إلا أنَّ الإسبان اتفقوا مع أبناء البلد الأصليّين، واستردُّوا تلمسان بعد عام واحد، وسقط "أوروج" شهيدًا أثناء مواجهتهم.

تأثر "باربروس" كثيرًا باستشهاد أخيه الأكبر "أوروج"، وصاح قائلًا:

- لو أعملتُ السيف في بلاد الفرنجة كلِّها، لما كفاني ثأرًا لإخوتي ورفقائي.

استتبَّ حكم "خير الدين باربروس" في الجزائر وتونس، وفي الأيام التي هيمن فيها على البحر المتوسط سمع بحّارتَه وهم يُنشدون:

فخرٌ وخيلاء قد وجب

لعدوِّنا لو أنَّ له بقًا كُتِب

لقد أقسم "باربروس" عقب استشهاد أخيه أن يشدَّ الخناق على العدوّ في ثغور إفريقيا والبحر المتوسط، وعندما سمع الأسطول الأسبانيّ بوفاة أخيه "أوروج" هاجموا الجزائر بجيش قويٍّ، إلا أن هذا الهجوم أسفر

(٣٦) بجاية: مدينة ساحلية في الجزائر.

(٣٧) تنس: مدينة تقع على بعد مائتي كيلو متر غرب الجزائر العاصمة، أي بين مدينتي "شرشال" و"مستغانم" على الساحل الغربي للجزائر.

obeikandl.com

عن مقتل ما يزيد عن عشرين ألفِ مقاتلٍ من الجنود الأسبانيّين، ثم لاذوا بالفرار، وتركوا خلفهم مئات الأسرى بينهم أربعة وعشرون قائدًا بحريًّا.

وقد صكّ باربروس النقود باسم السلطان "سليم خان"، واستقبل الأمراء العرب وخاطبهم قائلًا:

- إنَّ سلطان العالم "سليم خان" هو خليفة سيدنا رسول الله ﷺ، فكيف تدعون في الخطبة لسلطان المغرب وتصكّون النقود باسمه وتتركون سلطان الدنيا وخليفة المسلمين؟! كفُّوا عن هذا، وصكّوا النقود باسم سلطاننا؛ ففي هذا مستقبلكم وفلاحكم وسيادتكم، والويل لمن ينحرف عن هذا الطريق(٣٨).

خضر رئيس هو خيرٌ ونصرٌ للدين

أصبح "باربروس" وحيدًا بعد استشهاد شقيقه الأكبر، فأرسل في تشرين الأول عام (١٥١٩م) "حاجي حسين" إلى إسطنبول ليطلب مزيدًا من الدعم العثمانيّ؛ استقبل السلطان "سليم" "حسين آغا" في قصر "يالي" بحفاوةٍ كبيرةٍ، وأعرب عن سروره وسعادته لما حقَّقه "باربروس" من إنجازات في إفريقيا قائلًا:

- إنّ خضر رئيس نصرٌ وخيرٌ للدين.

وقد مكث "حاجي حسين آغا" واحدًا وأربعين يومًا في إسطنبول، ثمَّ ودَّعه السلطان "سليم خان"، وأرسل معه رسالة إلى "باربروس" بخطِّ يده أعلن فيها تنصيبه أميرًا على الجزائر، ومنحه حقّ تجنيد المتطوعين

(٣٨) أزطونه، المصدر السابق، ص ٤٨.

من الأناضول، وأرسل له وحدةَ مساعدةٍ عسكريّة تتكوّنُ من ألفي جنديّ من الإنكشارية ورجال المدفعيّة، ومنذ ذلك الحين عُرف "خضر رئيس" بـ"خير الدين" باشا.

بناءُ حضارةٍ جزائريّةٍ جديدةٍ

وفي السنوات اللاحقة بسط "خير الدين" باشا نفوذه في المنطقة بأكملها ما عدا جزيرة صغيرة تابعة للإسبان، وأخذ يهدّد بأسطوله الذي تجاوز عدد سفنه خمسًا وثلاثين سفينة سواحل إيطاليا ومن بعدها سواحل إسبانيا.

شكّل "باربروس" دعمًا كبيرًا لمسلمي غرناطة (الأندلس) الذين عانوا ظلمًا كبيرًا وقهرًا عظيمًا، إذ نقلت سفنه هؤلاء الناس المظلومين إلى سواحل إفريقيا، حتى تجاوز عدد المسلمين الذين تمّ إحضارهم إلى الجزائر سبعين ألف نسمة، وعلاوة على ذلك فقد أصبحت الجزائر أغنى مدن البحر المتوسط بالغنائم التي تمّ الاستيلاء عليها.

إنَّ الكاتب الإنجليزي "لين بول" تحامَلَ كثيرًا على "باربروس" الذي ذكره بين طيات كتابه الشهير "قراصنة البربر"، حيث قال:

> ”ما تولّى "خير الدين باربروس" أمرًا إلا نجح فيه، فقد قام مسلمو الأندلس -وهم سبعون ألف شخص هاجروا من إسبانيا إلى الجزائر- بإعمار الجزائر وإعادة مجدها القديم، وقد قام الفلاحون المهرة الذين تربوا في أحضان الحضارة الأندلسية العربية والفنانون الذين لم تنتفع منهم الحكومة الإسبانية؛ بالعمل على إثراء الحضارة الجزائرية والإرتقاء بمستوى الشعب الجزائري“[٣٩].

(٣٩) راغب شوقي يشيم، شخصية بربروس، موسوعة تاريخ الحياة، إسطنبول ١٩٦٩م، المجلد العاشر، ص ١٠ وص ٦١.

كانت غاية هذا الحاكم القويّ في تونس والجزائر إعادةَ تأسيس حضارة إسلامية في المنطقة، ونقل حضارة الأندلس إلى العالم الإسلاميّ.

فتح حصن "بانون (*Panon*)"

شيَّد الإسبانُ حِصْنًا منيعًا سمَّوه "بانون" على منطقة صخرية من ميناء الجزائر تبلغ مساحتها ثلاثمائة متر، ووضعوا فيه مئات الحرّاس والمدافع، وكان قائد الحصن قبل فتح الجزائر يأمر بقصف الميناء والمآذن بالمدافع أثناء رفع الأذان للتسلية؛ لذلك همَّ "باربروس" بالاستيلاء على هذا الحصن لأهميته الإستراتيجية وطالب بتسليمه، ولما رفض الإسبان هذا الطلب أمر بقصف الحصن بالمدافع حتى سقط في التاسع والعشرين من مايو/أيار عام (١٩٢٩م)، ثمَّ أمر "باربروس" بإحضار قائد المدفعية الذي حطَّم كثيرًا من المآذن وأطاح برقاب المؤذنين، وصرخ في وجهه قائلًا:

- أيُّها الكافر! سمعنا أنك قنّاص لا يُخطئ الهدف؛ وقد حطَّمت بكلِّ قذيفة مِئْذنةً، والآن حان دورك لتُقْذَفَ كالقذيفة.

ثم زجَّ بهذا الخائن في المدفع، وقذفه باتّجاه البحر، وأعدم أعوانه، وأمر بتفجير الساحل الصخري بالألغام[٤٠]، ثمَّ أحضر ثلاثين ألف أسير من السجون، وأمرهم بردم المسافة الواقعة بين الساحل الصخري والميناء لكي يتمكن من صد هجمات الموج بهذه المتاريس.

دعوة السلطان "باربروس" إلى إسطنبول

ترك "باربروس" عرشَ الدولة التركية التي أسسها شقيقه "أوروج"

(٤٠) الألغام: طريق يشق على شكل نفق تحت الأرض. وطبقًا للقواعد يتم وضع بارود في مواضع عدّة بهذا الطريق ويتم إشعالها، لفتح ممر في الحصن المطلوب إسقاطه، أو لتدمير جزء من قوات العدو.

فـي الجزائـر، ممتثلًا أمر السـلطان ومتوجّهًا إلى إسـطنبول، وكان شـعب الجزائر قد أحبَّ "باربروس" كثيرًا، ولقّبه بسـلطان الجزائر، بعد أن انتصر فـي معاركـه البحريـة والبرية على إسـبانيا أقوى الدول المسـيحية آنذاك، ولُقِّب "ملك البحار"، وقد قام السـلطان "سـليمان القانوني" بإرسـال أحد مستشـاريه "سنان جاووش" برسالة إلى "باربروس" في الجزائر وذلك بعد أن رأى أنـه قد حان الوقت لإعادةِ هيكلةِ الأسـطول العثماني والاسـتعانة بهؤلاء البحارة العباقرة، وقد جاء في هذه الرسالة:

''أيهـا البطل "خير الدين" باشـا حاكم ولايـة الجزائر العربية، اعلَـمْ أنني أرغب فـي الإغارة على ملك إسـبانيا، فعيِّن نائبًا عنك وهلمّ إلى إسطنبول، وإن لم تجد مَن ينوبُ عنك فأخبرني''.

وما إن قرأ "باربروس" رسالة السلطان حتى توجّه إلى "سنان جاووش" قائلًا:

– سـمعًا وطاعةً، سـآتي إلى **إسطنبول** في أسـرع وقت، وأُقدّم الولاء والطاعة للسلطان.

"خير الدين" باشا في إسطنبول

أناب "خير الدين" باشا ابنه من التبنّي "حسن آغا" في منصبه، ومضى إلى إسـطنبول بأسـطول قوامه ستّ وعشرون سـفينة، واستولى في طريقه علـى ثمانـي عشـر سـفينة، فأصبح لديـه أربـع وأربعون سـفينة، ووصل إسـطنبول في السابـع والعشـرين من ديسمبر/كانون الأول عام (١٥٣٣م)، وتدفّق أهل إسـطنبول نحو السـاحل لرؤيته رَغْم برودة الشتاء القارس؛ إذ كان النـاس يتشـوّفون لرؤية "باربـروس" البطل العظيم، فأمـر "باربروس"

بإطلاق نيران مدافعه تحيّةً للسلطان الأعظم وأهل إسطنبول الأجلاء الذين خرجوا لاستقباله بهُتافات قويّة.

استقبل السلطان "القانوني" "باربروس" ومن معه في صباح اليوم التالي بحفاوة كبيرة، وقبّل كلٌّ منهم يد السلطان تقديرًا له، علمًا بأن ملوك أوروبا حينئذٍ لم يكونوا يحظون باستقبال السلطان لهم بل كان الصدر الأعظم هو من يقابلهم، ثمَّ عرض السلطان "القانوني" قراره على "باربروس"، فقال له:

– أريدُ منك أن تتولّى قيادة أركان البحرية العثمانية لأرى كيف ستديرها وتحقق لنا الانتصارات، ولن آخذ منك إمارة الجزائر وتوابعها، وليحكمْها من شئتَ نيابةً عنك، لكنَّني أريد أن تُناقش هذه الأمور مع وزيري الأعظم "إبراهيم باشا" في حلب، فانطلق إليه، ثمَّ عُدْ لنتشاور مرّة أخرى"[٤١].

وهكذا تولى "باربروس" قيادة القوّات البحريّة وبالإضافة إلى ذلك ظلَّ واليًا على الجزائر.

انطلقَ "باربروس" إلى حلب في الشتاء البارد ليقابل الوزير الأعظم إبراهيم باشا الذي كان ينشغل بحملة على "إيراقين"، واستلم منه قرار تولّيه قيادة البحريّة العثمانيّة، ثمَّ عاد إلى إسطنبول في غضون عشرةِ أيام.

وعبَّر "خير الدين" باشا عن مشاعر فرحه باستلام الأسطول العثمانيّ فقال:

(٤١) أوزتونة، المصدر السابق ص ٨٤.

– مـا أعظمها من فرحة! لقد وُلّيتُ قيادةَ أسـطولٍ تعجز كلُّ أسـاطيل الفرنجة عن مواجهته، ففيه مصنـع للسـفن البحريّة يعملُ فيه عشرون ألف جنـديّ، بل إنَّ كفار البندقيّة كانوا في أوقات السِّـلم مـع سـلطاننا يطلبون منه أن يصنـع لهم السفن في ذلك المصنـع، وما النصر إلا من عند الله.

فكرة الحملة على "أمريكا"

وقد أفصح "خير الدين باربروس" باشا للصدر الأعظم "إبراهيم" باشا عن أفكاره تجاه العالم الجديد المكتشف حديثًا وهو "أمريكا"، فقال:

– لو أعددنا حملة إلى "العالم الجديد"؛ لاستفدنا كثيرًا من هذا العمل.

لكنَّ الصدر الأعظم رفض هذا العرض قائلًا:

– لا شـأن للدولة العليَّة بالبحار البعيدة، حسـبنا السـيطرة على البحر المتوسط والمحيط الهندي.

حملةٌ في موسِم الشتاء

كان تنصيـبُ "**باربروس**" قائدًا للقـوات البحرية العثمانية صدمةً كبيرةً للـدول الأوروبيـة، وخصوصًا "**كارل الخامس**" ملك **إسـبانيا** الذي عرض على "**باربروس**" التاج والعرش وغيرهما من الثروات مقابل رفضه منصب رئاسة الأسطول العثمانيّ.

وبعد أن نصّب السلطانُ "سليمان" القائدَ الجديد نسرَ البحرِ المتوسّط بقيادة الأسـطول العثماني حتى قـرّر "باربروس" الخروج بحملة في فصل الشتاء القارس، ولما سمـع السلطان بذلك قال له:

- أخشى أن يُصيبَك ضررٌ.

فأجاب القائد البحريّ العظيم:

- البحر المتوسط بيت خادمكم ومثواه، ولن يصيبني ضررٌ منه.

غادر "خير الدين" باشا إسطنبول على رأس ثمانين سفينة من الأسطول العثمانيّ في ربيع (١٥٣٤م)، وفتح ميناء "ريجو" و"مسينا" على سواحل مضيق مسينا جنوب إيطاليا، وكبَّلَ في سُفُنِهِ ستة عشر ألف أسير، حتى فاق عددُ الأسرى عددَ أفراد الأسطول، وأرسل إلى إسطنبول مفاتيح ثمانية عشر حصنًا ما بين صغير وكبير لضمِّها إلى الأملاك العثمانية، وستّةَ آلاف أسير على متنِ أربعين سفينةً، وأربعَمائةٍ وخمسةً وعشرين صندوقًا كبيرًا مليئًا بالغنائم تحمِلُها أربعون سفينة.

دخل "باربروس" تونس في الثاني والعشرين من سبتمبر/أيلول (١٥٣٤) بعد هروب سلطانها "مولى حسن"، ولكن "شارلكن" شنّ حملة على تونس بعد عام واحدٍ واستردّ المدينة في الحادي والعشرين من يوليو/تمّوز عام (١٥٣٥م)، وكان "باربروس" حينئذٍ قد عاد إلى الجزائر، ثمّ توجَّه إلى جزر "بلائير" باثنتين وثلاثين سفينة، فاستولى على جزيرتي "مايوركا" و"مانوركا" الإسبانيّتين، وسبى فيها خمسة آلاف وخمسمائة أسير، واجتاز جبل طارق مارًّا بخليج "قادس"، ودمَّر ميناء "فارو" الشهير جنوب البرتغال.

مائةٌ واثنتان وعشرون سفينة تواجه ستّمائة سفينة

بعد أن عاد "خير الدين باربروس" إلى إسطنبول والتقى بالسلطان "القانوني" مرة أخرى، خرج إلى البحر في ربيع عام (١٥٣٨م)، وفتح

ثماني وعشرين جزيرة من جزر "البندقية" جنوب "أغريبوز (*Eğriboz*)" وأربعَ قِلاعٍ وجمع عشرين ألف أسيرٍ وأرسلهم إلى إسطنبول، وهكذا أصبحت هذه الجزر تحت الحكم العثمانيّ سوى جزر "صاقيز" و"كريت" و"قبرص"، وبذلك تمّ تأمين جميع الطُّرق البحريّة أمام العثمانيّين.

في تلك الأثناء أُقيمت مُعاهدة جديدة بين كلٍّ من "إسبانيا" و"الباباوية" و"البندقية" و"جنوة" و"فلورنسا" و"البرتغال"، وجُهّزت -على جناحِ السرعةِ- أكثر من ستمائة سفينة مُعظمها سفنٌ حربيّة تابعة لدول مختلفة، وكان الهدفُ منه إنشاءُ أسطول قويّ للقضاء على الأسطول العثمانيّ، وعلم "باربروس" بتجمُّعها في جزيرة "كورفو" عند وصوله إلى مشارف جزيرة "أغريبوز" في الثاني والعشرين من سبتمبر/أيلول (١٥٣٨م)، وبلغه أنَّها حاصرت قلعة "براوزة".

حملتْ سفن العدوّ على متنها ما يزيد عن ألفين وخمسمائة مِدفع وستين ألف جنديّ، وبالإضافة إلى ذلك كان أسطولُ العدوِّ يضمُّ ما بين خمس عشرة إلى عشرين سفينة ضخمة تُسمّى "كراكا" وعلى متن كل منها ألفي جنديّ، وكان "أدريا دوريا" هو قائد هذا الأسطول العظيم، وبعد يومٍ واحدٍ من حصار الأعداء لقلعة براوزة وصل الأسطول العثمانيّ إلى خليجِ "أرتا" من جهة براوزة؛ الذي كان يضمّ مائةً واثنتين وعشرين سفينةً عثمانيّةً، على متنها ثلاثمائة وستة وستون مدفعًا وثمانية آلاف جنديّ.

حمدًا لله على البشرى

قرّر المجلس العسكريّ برئاسة "باربروس" مُحاربة الأسطول الصليبيّ وحَسْم المعركة معه في تلك الليلة رَغْم تفوُّق العدوّ في العدد والعتاد.

بقي "خير الدين" باشا تلك الليلة مستيقظًا حتى مطلع الفجر، ثمَّ صلى وسأل الله العون والنصر والثبات في مواجهة العدوّ المحتشد، ثم أسلَم عينيه للنومِ قليلًا حتى يأخُذ قسطًا من الراحة وعندما استيقظ قصّ الرؤيا على حاشيته قائلًا:

- بينما نحن على ساحل الميناء خرجت أسماك صغيرة إلى الشاطئ، وبينها سمكتان كبيرتان، وبينما أنا أنظر إليهما إذا برجل يمتطي حصانًا أحمر قد انطلق نحوي مسرعًا، وقف أمامي وأعطاني مِئْزرًا مملوءًا بالسمك الصغير، وقال: خذ هذا يا "خير الدين"! هدية من السلطان "سليمان" خليفة الله في الأرض، وأعطاني معها أيضًا رسالة، ثمَّ غاب عن الأنظار، فتحت الرسالة فرأيت آية قرآنية كُتبت بخطّ أخضرَ على ورقة بيضاء: ﴿**نَصْرٌ مِنَ اللهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ**﴾[٤٢]، قرأت الرسالة ومسحت بها وجهي وعينيّ، واستيقظت وأنا أقول: "الحمد لله رب العالمين والحمد لله على البشرى".

ثم عبر رؤياه فقال:

- كانت تلك الأسماك الصغيرة -والله أعلم- سفن الأسطول المسيحيّ، وأما جنوح سفن العدو إلى الشاطئ فهو إشارة إلى كثرة الغنائم التي ستقع بيد الجنود المسلمين، وأما السمكتان الكبيرتان فهما إشارة إلى السفن الضمخة، وأما السمك الذي يملأ المِئْزر فيشير إلى بُشرى فتح السلطان سليمان خان "بوغدانَ"، وأما الرسالة التي فيها آيات النصر فهي بشارةٌ بالنصر على العدوّ بعون الله.

(٤٢) سُورَةُ الصَّفِّ : ١٣/٦١

أوامر "باربروس"

بدأ "باربروس" بتوجيه الأوامِر لقوّادِ جيشه قائلًا:

- أعِـدّوا سـفنكم لمواجهـة العـدوّ، وتابعـوا حركتي عـن كَثَبٍ، ولا تخطوا خطوةً واحدةً إلا بأمري.

رأى "دوريا" عند طلوع الفجر توجُّه السفن العثمانية نحوه على شكل هلال، فانتابته الحيرةُ من إقدام "خير الدين" باشا وهمّته الخارقة.

كان الأسـطول العثمانـي الحربـيّ يتكّون مـن قلبٍ وميمنةٍ وميسـرةٍ، وكان "باربـروس" علـى القلـب ومعه ابناه من النسـب والتبنّـي، وكلاهما اسمه "حسن"، وكان على الجناح الأيمن "قَازْدَاغْلِي صالح رئيس"، وعلى الأيسـر "سـيدي علي رئيس" عالم الجغرافيا والرياضيات، وعلى المؤخرة "طورغوت رئيس" قائد سِرْب المتطوّعين(٤٣).

أمَّا سـفن العدوّ فقد اصطفّت فـي ثلاثة صفوف متتالية، وفي مقدمتها السـفن الحربية الكبيـرة "القليون" و"الكاراكا"، أما قائد الأسـطول "أندريا دوريـا" فـكان علـى رأس سـفن "القادرغـه" الكبيرة التي تقـع في الصف الثاني من الأسطول.

الرياح والآيات

هبّـت أثناء الحرب ريحٌ شـديدةٌ من الجنـوب، فقوَّت العدو، ولاحظَ "باربروس" ما أورثتْه من إحباطٍ لمعنويّات جنود الأسطول العثمانيّ، فأمر بكتابة الآيات وتعليقِها على طرفي السفينة، وإذا بالريح تتوقّف.

(٤٣) بحري نيان، معركة براوزة، موسوعة تاريخ الحياة، إسطنبول١٩٦٩م، المجلد العاشر، ص ٩ وص ٨٤.

ويعقّب "كاتب شلبي" على هذه الحادثة، فيقول:

– عندمـا كتبـت الآيات وعلّقت على طرفي السـفينة، سـكنت الريح وتوقّفت السـفن، ويُسـتفاد من هـذا أنّ على القادة العِظـام أن يجمعوا في حروبهم بين الأسباب المادية والمعنوية ما أمكن(٤٤).

وعقّب عليها قائد البحرية الفرنسيّة بطريقة أخرى، فقال:

– كان رُبّان السفينة وَرِعًا شجاعًا، فلم يخُضْ حربًا قطّ قبل أن يُصلّي، وقـد أمـر جنـوده بكتابة آيـات قرآنيـة على أشـرعة طويلـةٍ، وربطها على جوانب سـفينته التي تسـمى بـ"القادرغه"، وإذا بالرياحِ تتوقّفُ فجأةً بشكلٍ عجيبٍ(٤٥).

وهناك روايات تفيد بأن "باربروس" قد أمر بكتابة الآيات على الرايات وتعليقها قبل تولّيه قيادة البحريّة العثمانيّة.

جمرة اللهب

حينما أعاق توقُّف الريح حركة سفن العدوّ الثقيلة، أمر القائد "دوريا" بقصـف مدفعيّ كثيف من السـفن الكبيرة الأماميّـة، إلا أنّ القذائف كانت تسـقط في البحـر وتقصُرُ عن بُلوغ الهدف، أما المدافـع العثمانية فكانت طويلـة المدى، لذلك بدأ الأسـطولُ العثماني بتدمير سـفن العدوّ الأماميّة وعلى رأسِها "القاليون" وفي هذه الأثناء بادر "طورغوت رئيس" بالالتفاف إلى أسطول العدوّ من الخلف، ولم تعد مناورات "دوريا" تستطيـع مقاومة ومواجهة مناورات "باربروس"، واستمرّت الحرب الضروس عدّة ساعات،

(٤٤) بخري نويان، المصدر السابق، ص ٨٥.

(٤٥) راغب شوقي يشيم، المصدر السابق، ص ٦١.

وأسفرت عن تدمير سفن العدو الأماميّة تمامًا، وأمر "باربروس" باختراق صفوف العدوّ، فتشتّت الأسطول المسيحيّ تدريجيًّا، وأصبح مُطوّقًا داخل حلقة.

في الثاني والعشرين من تشرين الأول عام (١٥٣٨م) اعترى "دوريا" يأس شديد، وأمر أسطوله بالانسحاب ليلًا، وبدأت السفن المسيحية بالفرار مُستغلّة ظلام الليل، ولم يتعقّبهم "باربروس"، بل عاد إلى ساحة الحرب ليأمر بإحراق السفن المتبقية فيها، وتحوّل بحر براوزة إلى جمرة لهَب، وكأنّه يحتفل بهذا النصر العظيم على أضواء نيران عظيمة تسطع في عنان السماء.

تكبّد "أندريا دوريا" في هذه الحرب خسائر فادحة، حيث فقد ما يقرب من مائة وثمان وعشرين سفينة حربية كبيرة من طراز سفن "كاراكا" و"قاليون"، وقد كان هذا العدد الهائل من السفن المدمرة يفوق عدد سفن الأسطول العثماني، وأما الأسطول العثمانيّ فلم يفقد سفينة واحدة قطّ، بل أسر ألفين ومائة وخمسة وسبعين جنديًّا مسيحيًّا، واستولى على ستّة وثلاثين قاربًا صالحا للإستخدام.

قوة الإيمان

يتحدّث الكاتب الفرنسيّ "سان دي فيلله (*San de Ville*)"عن "باربروس" قائلًا:

– كان "باربروس" شديد الذكاء مَرِحًا مِقْدامًا، يحتدّ في كلامه إذا غضب، وكان شجاعًا يَقِظًا فَطِنًا وكان ينظر بعين ثاقبة لمجريات الأمور قبل بدء الحرب.

ويكشف "خير الدين باربروس" أسرار معركة براوزة البحرية في مذكراته التي استكتبها "سيد مرادي"، ويقول:

- رَغْم تفوُّق العدوّ كنا نتميّز عنه بأمور:

أولها: أنّني كنت مسيطرًا على سفن الأسطول بما فيها السفن الكبيرة، وكانت أوامري تُنفَّذ فورًا حتى في السفن البعيدة، أما العدوّ فكان بخلاف ذلك، فلم يكن "دوريا" مُسيطرًا على السفن القريبة منه فضلًا عن باقي أسطوله.

ثانيها: أنّ أسطول العدوّ مُكوَّن من أساطيل أُمم مختلفة، لا تتّفق مع بعضها، ولا تفهم لغة بعضها، كما أنَّ قائدَي سفن الباباوية الإيطاليّين "كابللو" و"جيرماني" كانا يُبغضان "دوريا".

ثالثها: كانت مدافعنا تفوق مدافع العدوّ من حيث إصابتها الأهداف على بُعد، ولأني أعلم هذا فقد أبعدت أسطولي عن العدوّ، فاستطاعت قذائفنا تحطيم سفن الكفار، بينما كانت قذائفهم تسقط في البحر بعيدة عن سفننا، وكان قادة الكفار يضيقون ذرعًا ولكنهم لا يستطيعون تغيير مجريات الأمور لصالحهم.

رابعها: كانت سفننا أخفّ من سفن العدوّ في حركتها وأسرع منها، فكانت تحوم حول ميدان القتال بكل سهولة ويسر مما جعلها تدمر وتصيب سفن الكفار بقذائفها.

خامسها: ارتداء بحّارتي ملابس خفيفة وحملهم أسلحة خفيفة، وأما جنود العدوّ فكانوا يرتدون ملابس ثقيلة ويحملون أسلحة ثقيلة تُبطئ حركتهم، وهذا ما ساعدنا في التغلُّب عليهم.

وأما عن أعظم مزية لنا فهي قوة إيماننا ثم تبعيّتنا لسلطاننا الأعظم.

مات رئيس البحر

أرسل "باربروس" مع ابنه "حسن بك" إلى السلطان "القانوني" رسالةً بنصر براوزة، وكان السلطان في طريق عودته من حملة "بوغدان"، فأمر فورًا بعقد اجتماع طارئ استمع فيه إلى رسالة النصر مع قادته، وأمر بنشر هذا الخبر في كلِّ ولايات الدولة، وبإقامة الاحتفالات في كلِّ أنحائها.

كان "باربروس" يجيد لغات البحر المتوسط مثل الرومية والعربية والإسبانية والإيطالية والفرنسية لأنه قضى عمره في هذه البحار، وكانت آخر حملاته الكبيرة إلى "نيس".

وفي أيار من عام (١٥٤٣م) انطلق "باربروس" بأسطول من إسطنبول قوامه مائة وعشرة سفن، ثم عاد بعد أن قضى ستة أشهر في السواحل الجنوبية من فرنسا.

تفرّغ "خير الدين" باشا في آخر عمره لمصنع السفن، وكانت وفاته في الخامس من يوليو/تموز عام (١٥٤٦م) إِثْر مرض ألمَّ به، ودفن بجوار المدرسة التي بناها في "بشيكتاش".

obeikandl.com

قدَّم «بيري رئيس» إسهامًا عظيمًا لتاريخ العالم الجغرافيّ، فعرَّف العالم أجمع بقارة «أمريكا»، حيث قام برسم أوّل خرائطها وأدقّها طبقًا لعصره رغم أنه لم يزرْها ولم يرَها رأيَ العين.

وقدّم كتابُه المعروفُ «كتاب البحريّة» أثرًا فريدًا لحضارة العالم الجغرافيّ، وهو أقدم مرشدٍ ودليلٍ بحريٍّ لبحرَي «إيجه» و«المتوسّط».

إنه العالم النحرير والبحّار الشهير، قائد أسطول الهند، وفاتحُ «عدن» و«مسقط».

إنه «بيري رئيس».

obeikandl.com